بكائية

عبدالعزيز المقالح

إلى صديقي الشاعر محمد عبدالسلام منصور في حزنه لرحيل والده الحبيب.

-١-

لم يبقَ من زمنِ الحياةِ سوى القليل
الموتُ أسرف في امتلاك الأرض
أسرف في امتلاك زمانِها
ومكانِها
لم يبقَ إلاَّ الموت
فاكتب يا صديقي ما تبقى من سطورٍ فيك
في عكازة العمر العجوز
وفي رماد العينِ
في حبر العظامْ.

-٢-

لم يبق إلاّ الموتُ سيِّد هذه الدنيا
فلا تحزن ،
ولا تفرح ،
ولا تبكِ السماوات التي تنأى
ولا الأيتام
والأيام
وانتظر البشارة في المقابر
في الرُقى.
واحذر - صديقي -تحترسْ
من طلقةٍ أو طعنةٍ
أو من ذباباتِ الظلام.

-٣-

لا...
ليس إلاَّ الموت
إلاَّ الشعر يفتحُ هذه الأبوابَ
يعصفُ بعد أن رقدتْ جفونُ الخلقِ
وامتدَّ الحريق
من المياهِ إلى المياه
وخانت الرؤيا الدليلَ
وأسدلتْ حولي وحولك
كلَّ هذا الليل
لا أحدُ سواه

-٤-

غابوا أحبتُنا
افتقدنا ظلَّهم
وكلامَهم
وحنينَ ذاك الانخطاف
إذا اكتسى وجهُ المدينةِ بالغمامْ
يا صاحبي ،
لم يبقَ إلاَّ الموت
ينقذنا ،
يحررنا من الزمنِ الكئيبِ
ومن مخاتلةِ اللئامْ.

القراءة.. احتفاءٌ بالكتاب

هشام علي

■ ،، كتب أحد النُّقَّاد في معرض حديثه عن الأديب الأرجنتيني «خورخي لويس بورخيس»، الكاتب الذي ارتبطت حياته بالمكتبة والكتاب، حتى أنه بعد أن فقد بصره كان يذهب إلى المكتبة الوطنية في بوينس إيرس، ويجلس ليتحسس أغلفة الكتب ويشم رائحة حبر الكلمات .. كتب هذا الناقد يقول : «إن المكتبة هي حجرة سحرية يختبئ فيها العديد من الأرواح المسحورة، أرواح تستيقظ عندما تُنادى .. فطالما أن كتاباً لا يُفتح فإنه يكون، حرفياً وهندسياً، كُتلة وشيئاً بين الأشياء .. عندما يُفتح، عندما يجد الكتاب قارئه، يحصل الفعل الجمالي»..

■ القراءة إذن هي الفعل الذي يُكمِّل الكتابة .. القارئ ليس مُجرَّد كائن سلبي، مُتلقٍ وحسب، إنه مُشاركٌ وفاعلٌ .. الكتاب بدون قارئ، ليس سوى كُتلة، شكل ورقي مستطيل، قطعة ديكور سريعة التلف .. القراءة تهب الكتاب الحياة..

■ لقد اخترت القراءة موضوعاً للاحتفاء بالكتاب في اليوم العالمي للكتاب، هذا العيد الذي اختارته منظمة اليونسكو لأسباب عديدة، منها أن عدداً من الأدباء والكُتَّاب قد ولدوا أو ماتوا في هذا اليوم، وربما أنها أعيادٌ جديدة في زمن العولمة، يجري التبشير بها لتصبح أياماً احتفاليةً موحّدةً للعالم، تتجاوز القوميات والأثنيات والديانات، وتجعل العالم موحَّداً، ليس في التجارة والحروب وحسب، ولكن في الشعر والمسرح والكتاب..

■ وبغضّ الطرف عن الأسباب، فإن الاحتفاء بالكتاب في هذا الزمن أمرٌ مطلوب، ليس بسبب الهجوم الذي يتعرّض له الكتاب من قبل الوسائل السمعية والبصرية الحديثة أو ما بعد الحديثة، التي تُحوِّل مكتبة هائلة إلى مجموعة بسيطة من الأقراص المُدمجة، التي يُمكن جمعها في حقيبة صغيرة، ولكن لأسباب أخرى، في مُقدِّمتها القراءة وما يرتبط بها من بروتوكولات وعقود تجمع بين المُؤلِّف والقارئ أو بين الكتاب والمُجتمع أو بين فعل القراءة والمُمارسة الديمقراطية، التي تعني في وجه من وجوهها المُشاركة والحوار والقبول بالآخر المُختلف..

■ إن تاريخ الكتاب هو تاريخ الإنسان .. بل إنه أجمل تواريخه وأشدّها سحراً وفتنةً .. وأعداء الكتاب - كما يقول الشاعر «بول ناميري» - هم أعداء الإنسان : النار، الزمن، المضمون، أي مضمون الكتاب .. ربما نسي «فاليري» عدواً آخر للكتاب، الحرب .. فالحرب عدو للكتاب، ليس لأنها تحرق الكُتب، كما نُشاهد اليوم في بغداد، ولا لأنها ترمي بالكُتب إلى النهر، على نحو ما فعل التتار بالأمس وفي بغداد أيضاً، لكن الحرب عدوٌ للكتاب بما تمحو من ذاكرة وتاريخ، وبما تُؤسِّس من ذاكرة أُخرى وتاريخ آخر .. الحرب تقلب حقائق التاريخ، تُعيد نسجها على نحو مُختلف يتناسب مع رغبة المُنتصر وكتابته..

■ ومن المُؤسف أن نكون في هذه الأيَّام، شهوداً على أكبر عملية تدمير للذاكرة البشرية .. فحيث ولدت الكتابة ونشأت، تجري عملية إحراق للمخطوطات وتدمير للنقوش وتخريب لآثار الحضارة، التي لا تُنهب من المتاحف وحسب، بل وتُنزع من مواقعها التاريخية وتُمسح مسحاً من الوجود..

■ في كتاب (تاريخ القراءة) يتحدَّث «ألبرتو مانغويل» عن رحلته إلى العراق، إلى بابل على وجه التحديد، ليُشاهد هناك بدايات الكتابة والقراءة في تلك البلاد التي أسَّست حضارتها على الكتابة..

■ يقول «مانغويل»، في صيف عام ١٩٨٩م، قبل اندلاع حرب الخليج بفترة وجيزة : «سافرت إلى العراق لزيارة أطلال مدينة بابل وبرج بابل المشهور .. تقع أطلال بابل، التي نقَّب عنها فيما بين ١٨٩٩ و١٩١٧م، عالم الآثار الألماني «روبرت كولدفاي» على مبعدة ستين كيلو متراً إلى الجنوب من بغداد .. تتكوّن هذه الخرائب من متاهات جبّارة من جدران طينية صفراء اللون كانت في يوم من الأيَّام مركزاً لأقوى دولة مدنية في عالم ذلك الزمان .. في إحدى الزوايا نُشاهد تلاً من الطين يدّعي معظم الأدلاء السياحيين أنه بقايا برج بابل، ذلك البناء الذي صب الله عليه لعنة تعدّد اللُّغات .. كان سائق السيارة الأجرة يعرف المكان لسبب بسيط هو أن خالته كانت تسكن في مدينة الحلّة القريبة من بابل .. كان معي كتاب «أنطولوجيا القصص القصيرة» من إصدار دار نشر بنغوين .. بعد أن شاهدت بقايا المكان، الذي كان بالنسبة لي، أنا القارئ الغربي، منشأ جميع الكُتب، جلست مُستظلاً بشجرة دفلى وأخذت أقرأ بهدوء .. جدران، شُجيرات دفلى، شارع مُبلّط بالأسفلت، مداخل ذات بوابات، كُتل من الطين، وأبراج متهاوية : يكمن سر بابل في أن الزائر لا يُشاهد مدينة واحدة فقط، بل مُدناً عديدة قامت واندثرت خلال أزمنة مُتعاقبة في مكان واحد .. هُنا كانت بابل الأكدية، قرية صغيرة في نحو (٢٣٥٠ ق . م) .. وهُنا كانت بابل ملحمة جلجامش، التي تتضمّن تقريراً مُبكّراً عن الطوفان، والتي كانت تُحكى هُنا في وقت ما من الألفية الثانية قبل الميلاد .. وهُنا نجد بابل الملك حمورابي من القرن الـ (١٨ ق . م)، التي تُعتبر قوانينه التي سنّها، أوّل محاولة معروفة في تاريخ البشرية لوضع قواعد وأحكام تنظيم حياة مُجتمع بأسره .. ثم بابل التي هدمها الأشوريون عام (٦٨٩ ق . م)، وبابل التي أعاد تشييدها «نبوخذ نصر» - نفس الملك الذي قام في (٥٨٦ ق . م) بمُحاصرة مدينة القدس داكاً هيكل سليمان، وسابياً الشعب اليهودي، الذي جلس على ضفاف الفرات باكياً - ثم هناك بابل بلشصر، ابن أو حفيد «نبوخذ نصر»، الذي شاهد كأول إنسان الكتابة على الجدران المنبئة بحدوث الكارثة، في وقت لاحق جاء إلى بابل الإسكندر الكبير، الذي جعل منها عاصمة إمبراطورية عظيمة - من اليونان إلى شمال الهند وحتى مصر - حيث تُوفّي فيها، كما شاءت الأقدار وهو في الثالثة والثلاثين من العمر وبيده لفيفة من الألياذة .. في ذلك الزمان، كان قادة الجيوش يقرأون .. ثم جاءت بعد ذلك بابل التي تحدَّث عنها «يوحنا اللاهوتي» في سفر الرؤيا (.......) .. وفي النهاية تطالعك بابل سائق سيارة الأُجرة، أطلال وخرائب قُرب مدينة الحلّة، حيث تُقيم خالة الرجل»..

■ ربّما يُضيف «مانغويل» إلى الطبعة الثانية من (تاريخ القراءة)، نهاية أُخرى، وهي بابل الأطلال والخرائب وقد أحرقتها الصواريخ الأمريكية ودمَّرت معها مدينة الحلّة ومنزل خالة سائق الأُجرة المذكور .. أو بتعبير آخر، لا أثر لبابل ولا لمدينة الحلّة، إنها حروب الحضارات .. فأمريكا، التي بحثت قبل عقود قليلة من الزمان عن جذورها مُتأثِّرة برؤية سوداء «الجذور» التي تحوّلت إلى فيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني، خرجت إلى العالم لتدمر جذور الحضارات الأُخرى وتمحور ذاكرة العالم، وتبدأ هي بعد ذلك بكتابة تاريخ العالم وفقاً لهواها ورُؤاها..

■ بيد أن بابل المهزومة اليوم، انتصرت لذاكرتها وحضارتها يوم اكتشفت الكتابة .. دوَّنت تاريخها المليء بالصعود والانهيار، كتبته على ألواح الطين ونشرته في أرض سومر وسامراء، تغلّبت بذلك الفعل على أزلية الموت والنسيان .. وأنجز ذلك الكاتب المجهول كل هذا المعلوم من العلم والمعرفة والتاريخ الذي امتد مُنذ ذلك الزمان إلى اليوم..

■ ولم تكن الكتابة الاكتشاف الوحيد لأهل بابل .. فقد تطوّر في الوقت نفسه فعل آخر .. «فنظراً لأن الغرض من فعل الكتابة كان المُحافظة على نص من الضياع - أي قراءته - جرت مع اكتشاف الكتابة عملية خلق القارئ - الدور الذي كان موجوداً قبل ظهور القارئ.. الدور الذي كان موجودا قبل ظهور القارئ الأول - وعندما خط الكاتب الأول علاماته في الصلصال فإنه استبق في الواقع فن القراءة، الذي كانت تدويناته ستصبح، بكُلِّ بساطة، عديمة المعنى .. كان الكاتب يعد الرسائل، يخلق العلامات، إلاَّ أن علاماته كانت بحاجة إلى شخص آخر يستطيع قراءتها وإعطاء الرسائل صوتاً تنطق به .. الكتابة كانت بحاجة ماسَّة إلى القارئ»..

■ ولا تبدو العلاقة بين الكاتب والقارئ مُنسجمة أو مُتوازية، كما تظهر في لحظة النشوء، بل هي مُتناقضة .. حيث أن القراءة تقوم على غياب الكاتب أو موته .. فنهاية الكتابة تعني موت الكاتب أو تخليه عن النص، ليبدأ رحلته مع القارئ، الذي يُعيد تشكيل الكتابة، مُعتمداً على ذلك الغياب المفروض على الكاتب .. تحصل العلاقة الأصلية القائمة بين الكاتب والقارئ على مُفارقة رائعة : عندما خلق الكاتب دور القارئ، فإن الكاتب مهَّد، بهذا الفعل، الطريق إلى حتفه، لأنه عندما يختتم نصّه يتوجّب عليه الابتعاد عنه والتوقُّف عن الوجود .. ما دام الكاتب موجوداً يبقى النص غير مُكتمل .. وبعد أن يطلق الكاتب سراح النص يبدأ وجوده الذاتي الصامت، إلى أن يأتي قارئ ويقرأه .. لذا فإن جميع الكتابات تعتمد على سخاء القارئ الذي يُبديه تجاهها..

■ إن العلاقة غير السهلة بين الكاتب والقارئ، التي بدأت في بلاد ما بين النهر في يوم محفوف بالأسرار، ستبقى قائمةً أبد الدهر .. إنها علاقة مُثمرة، ولكن منطوية على مُفارقة زمنية بين مُبدع بدئي يهب الحياة في لحظة الموت وبين المبدع بعد مماته، أو بالأحرى بين أجيال من المُبدعين بعد مماتهم، الذين يُمكّنون ما جرى خلقه من التكلُّم، والذين لولاهم لأصبح كُلّ شيء مكتوب ميتاً : القراءة هي إذن تبجيل الكتاب .. القراءة تمنح حروف الكتابة حياة أُخرى .. كذلك يغدو القارئ كاتباً آخر للنص، لأنه إذ يبعث الحياة في الكتابة، يهبها معنى آخر جديداً، قد لا يكون ذلك المعنى الذي أراده الكاتب..

■ بابل، التي وقف «مانغويل» على أطلالها، كانت الموطن الأول للكاتب الأول والقارئ الأول في تاريخ البشرية .. هل تُريد الإمبراطورية الأمريكية لهذه البلاد أن تكون مكاناً لموت القارئ الأخير؟

■ إن عملية إحراق الكُتب وتدمير الآثار والنقوش، التي شهدناها في العراق، تُؤكِّد أن حضارة الكمبيوتر والأقراص المُدمجة والكتابة بالليزر وأقلام الضوء، لا تُريد أن تترك أثراً لألواح الطين والنقوش والكتابة بأقلام الحبر .. إنه تحد آخر للذاكرة الثقافية وللحضارة .. ولعلَّ كثيراً من الذين شاهدوا فيلم (الآخر) للمخرج «يوسف شاهين» يتذكّرون ظهور المُفكِّر العربي «إدوارد سعيد» في بداية الفيلم وهو يُخاطب شاباً مصرياً ذهب إلى أمريكا للدراسة، وأصابته عُقدة التفوّق الهائل في الحضارة الأمريكية، وأثارت أسئلة كثيرة في نفسه، أسرها إلى أستاذه البروفيسور «سعيد»، فأجابه : هم اخترعوا الكمبيوتر ونحن اكتشفنا الكتابة!!..